

المساواة الاقتصادية في الأديان

إن الأديان السابقة على الإسلام لم تعن بالاقتصاد على أنه المعنى المفهوم من الاقتصاد، فالإقتصاد بمعناه المفهوم أن يكون شاملاً لنواحي الحياة الخاصة بالمال، وتنظيمها تنظيمًا يشعل احتياجات المجتمع وضرورياته؛ فينظم الأعمال، والإنفاق، وطرق الكسب، وغيرها من السياسة المالية.

أما نظرة الأديان إلى المال فهي اعتبار المال على أنه كسب بالطبيعة، وإن كانت قد ضربت الأمثال الضئيلة إلى أن المال عصب الحياة، إلا أنها لم تضع نظامًا ينظم سياسته أو يحدد طرق كسبه؛ لذلك كانت سياسة المال تسير حسب مقتضيات الحاجة إليه، وكان تطور النظام تبعًا لتطور المجتمع دون أن يكون له سند، أو أساس يوحى بن دين، أو تشير إليه عقيدة.

فالأديان القديمة كما بينما سالفًا قصرت تعاليمها على الحب، والإخاء، والتعاون، والعطف على الفقير. أما من ناحية المال فقد أوصت بالعمل والكسب، ولكنها جعلت اهتمامها الأكبر مقصورًا على النواحي العقائدية أكثر من النواحي الدنيوية. وبذلك لم تكن هناك إشارات تفيد أنها اهتمت بتنظيم الميزان الاقتصادي، اللهم إلا بعض الفلاسفة أصحاب

المبادئ والمدارس الذين وضعوا المبادئ الخاصة بتداول السياسة الاقتصادية؛ وذلك أمثال أرسطو الذي وضع كتابًا عن السياسة ضمنه إشارة إلى تحريم الربا، وبالطبع كانت قاصرة لأنها لم تلم بجميع شئون السياسة المالية.

أما الديانات السماوية فمنها ما اهتم بالمال على الأساس الأول في الحياة، ولكن هذا الاهتمام تطور إلى عيب من العيوب الاجتماعية، حيث بلغ الاهتمام بالمال إلى أن وصل إلى درجة العبادة، فأصبح المال هو الهدف الأول والمعبود من دون الله، وبذلك طغت المادة على الروح؛ فتحجرت تلك الديانة وأصبحت مادية مطلقة، وتلك هي ديانة اليهود.

فاليهودية بأسفارها مليئة بالوصايا التي تشير إلى سياسة المال، وتنظيم السياسة الاقتصادية، ولكنها سياسة محرفة خرجت عن الوصايا التي جاء بها أنبياء بني إسرائيل، إلا فيما يختص باليهود أنفسهم. فقد جعلت سياسة المال والاقتصاد سياسة محلية داخلية على أحدث النظم الإنسانية، أما إذا خرجت تلك السياسة وأصبحت خارجة عن حيز اليهود فهي استغلال، وغش، وسرقة.

أما ما ورد في أسفار اليهود عن التوراة بعد التحريف، فهو اقتصاد مزيف، حيث لا مساواة فيه بين الإنسانية جميعًا. إنما جعل المساواة بين المجتمع اليهودي فقط. فقد بذلت الأسفار المواعظ والوصايا للشعب اليهودي، فأوصت بالعمل والكد. فقد جاء في العهد القديم ما يشجع

على العمل وينهي عن الكسل، ففي سفر الأمثال الإصحاح العشرين من الآية الثالثة عشر يقول سليمان: (لا تحب النوم لئلا تقتصر وتفتقر، افتح عينيك تشبع خبزًا). وفي نفس السفر يقول سليمان في أمثاله: (المشتغل بأرضه يشبع خبزًا، وتابع البطالين يشبع فقرًا). كما يقول سليمان: أما يد المجتهد فتعني ويد البطال تفقر.

وقد جاء في حق الربا وتحريمه ما يقول سفر الخروج: (إن أقرضت فضة للفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي). وفي سفر التثنية: (لا تقرض أخاك بربا؛ ربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شيء مما يقرض بربا). وفي سفر نحemia: (إني بكت العظماء والولاة وقلت لهم أنكم تأخذون الربا كل واحد من أخيه).

والربا محرم فقط بين اليهودى وأخيه، أما فهو حلال بين اليهودى والأجنبي، ودليل ذلك ما جاء في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج: (للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرضه بربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك).

وكل ما جاء بعد ذلك في التوراة فهو حض على الإنفاق على فقراء اليهود دون غيرهم، وأما كتاب التلمود الذي استحدثه اليهود خاص بأعمال الزراعة، والحصاد، والتجارة؛ فتشع منه الأنانية اليهودية. وسواء كانت التوراة الخرفة، أو التلمود المستحدث فهما يدلان دلالة قاطعة على عدم المساواة بين الإنسانية في الديانة اليهودية.

وجاءت المسيحية عقب الديانة اليهودية والعالم يذخر بالمبادئ المادية التي خلت تمامًا من كل القيم الإنسانية، بذلك لجأت إلى إعلاء قيمة الروح، والحد من قيمة المادة، والتقليل من شأن المال حتى تعود بالعالم إلى الحياة السليمة، وتنقي النفوس، وتطهر الوجدان.

فقد جاءت في العهد الحجري للنفوس، وفي العهد الروماني بقوانينه المنظمة، فلم تكن في حاجة إلى تنظيم الحياة الدنيا، بل كان كل رسالتها تنقية النفوس من الشوائب المادية والإلحادية؛ فنشرت من المال واكتنازه، وذلك وارد في إنجيل متى الأصحاح السادس الآية السادسة عشر: (لا تكتنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون). كما جاء في نفس الإصحاح: (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدر أن تحترموا الله والمال). كما جاء في رسالة العبرانيين: (لنكن سيرتك خالية من محبة المال، كونوا مكثفين بما عندكم).

وكانت المسيحية تحض المسيحيين على أن يعيشوا على الكفاف، كما جاء في الصلاة التي علمها لهم المسيح عليه السلام: (خبزنا كفافنا أعطنا اليوم)، كما أمرتهم أن يتركوا الدنيا ويتجهوا إلى الآخرة. وكانت تعاليم المسيحية تقلل من شأن الأغنياء؛ وذلك أن المسيح أشار في كلامه إلى أن دخول الجمل من سم الخياط أسهل من دخول الغني الجنة، بل كان يحتم على الذين يعملون بالتبشير أن يبيعوا كل ما يملكون ويتصدقوا به على الفقراء، ثم يبدأون العمل بالتبشير.

ولكن تعاليم المسيحية لم تمنع بعض القائمين على الشؤون الدينية من أن يشرعوا في الاقتصاد، ولك أمثال (مارتن لوثر) الذي كتب فيما يختص بالربا وتحريمه وسماه بيع النسيئة، وهو ما يسميه الإسلام بيع النجاش؛ وهو يشبه المساومة والمضاربة التي تكون باتفاق التجار لرفع الأسعار. فقد قال لوثر: (أن هناك أناساً لا تبالي بضمايرهم أن يبيعوا بضائعهم بالنسيئة مقابل أثمان غالية تزيد على أثمانها التي تباع بها نقدًا، بل هناك أناس لا يحبون أن يبيعوا شيئاً بالنقد، ويؤثرون أن يبيعوا سلعهم جميعاً على النسيئة)، ثم قال: (إن هذا التصرف فيه مخالفة لأوامر الله ومخالفة للعقل والصواب، ومثله في ذلك مثل مخالفة الأوامر الإلهية والأوامر العقلية أن يرفع البائع السعر بعلمه).

والخلاصة أنه لا يمكنك أن تجد للمال سياسة في تلك الأديان، بل تركت الأديان التشريع الاقتصادي لأنانية الإنسان، فيبغى القوي على الضعيف، ويشبع ذلك القوي ويجوع الآخر، ويلجأ الجوعان تحت تأثير جوعه إلى سرقة من أئخمه الشعب. وبذلك يختل نظام المجتمع، لأنه لا تنفع المثل العليا مع الجوع، وماذا تفعل مبادئ الأخلاق والروح مع البطن الخاوي الذي يمنع العقل عن التفكير إلا فيما يعود عليه بالشعب دون التفكير في أن هذا حلال وذاك حرام.